قصة قصيرة

حائط البنادق

عبد الخالف الركابي

(١)

لست حزيناً ، إنما يملأني شعور قديم بالإثم كنت أحسبه قد ذاب وتلاشى منذ اليوم الذي أوليت القرية ظهري قبل سنوات وقررت هجرها إلى الابد ، لكن لشد ما كنت مخطئاً ، فها أنذا اكتشف أن الماضي لن يموت بتلك البساطة التي تصورتها ، وان الأوجاع القديمة تظل تنبض في موضع ما من الجسد ـ في الرأس أو في القلب ؟ لا فرق ـ في انتظار الاصبع الذي يزيل الركام .

منذ استلامي للبرقية وإلقاء نظرة متوجسة على كلماتها المقتضبة التي تحمل صبغة ورق الكاربون وفي أسفلها اسم عمي (المحب) ـ كما يلذ له أن يطلق على نفسه ـ وأنا أشعر بأن ذلك الرجل الصامت نفض عن ركام الماضي الغبار ، وعاد يحدجني باحدى نظراته المخيفة التي كانت أكثر وقعاً ألف مرة من صفعات أمي التي كنا ـ أنا وإخوتي الصغار ـ نتقبلها وأجسادنا الصغيرة تختض بضحك مكتوم . كان يكفي أبي أن يحدجني بواحدة من نظراته تلك لكي انكمش على نفسي طوال ذلك النهار أعاف الطعام والشراب في انتظار صباح الغد وسماع صوته وهو يدعوني الى حجرته فأعلم أنه قد صفح عني ... وبقيت تلك النظرة تطاردني وأنا أتنقل بين غرف الدائرة لغرض الحصول على الاجازة دون أن تردعها الأبواب الزجاجية التي كانت تصطفق خلفي ، ولا ضجيج الشوارع وأنا أشق طريقي نحو الفندق لاسارع باعداد حقيبتي ، ولا صخب المسافرين وهم يتدافعون لاحتلال مقاعدهم في السيارة المثقلة بروائح خانقة تكاد تكتم الانفاس .

استسلمت لارتجاج السيارة الرتيب شاعراً عن طريق كوعي المرتكز على حافة النافذة باحتكاك العجلات على الطريق الاسفلتي المندفع باتجاهي . وكان جاري القابع على يساري يغالب تثاؤباته المتعاقبة بالعبث بحبات مسبحته الضخمة بحمية . وفي الجانب الآخر منه لم أكن المح من السائق سوى ذراعيه المشعرتين وهما تمسكان بالمقود بأبهة مبالغ بها لتطبطبا عليه في لحظة انتشاء مفاجيء منسجماً مع ايقاع الأغنية التي يصدح بها المذياع ، دون أن يأبه للسيارات القادمة من الجانب المعاكس وهي تنمو بسرعة خارقة قبل أن تنخطف بدوي صاخب . وفي المرآة التي تعلو رأسه ، والتي تؤطر عينيه المعتكرتين وجبينه الضيق المستسلم لسطوة كتلة شعر خشن خالطه البياض والدهان ، كنت ألمحه وهو يتابع السيارات التي كانت تسبقنا بنظرات فضولية مشوبة بخيبة سرعان ما كانت تتحول إلى انتصار ساحق عندما يعود يسبقها بدوره . وفي لحظات مجده تلك كان يمسك بي متلبساً باستراق النظر اليه ، فأسارع بالالتفات يميناً محدقاً بأعمدة البرق وهي تتتالى مبتعدة الى الوراء وأسلاكها النحاسية تتوهج تحت الشمس التي توسطت السماء . وفي المرآة الجانبية كانت تطالعني ملامحي المحايدة وربطة عنقي السوداء التي كانت تفضح أصلي الفلاحي ، حيث أنني لم أتقن عقدها في يوم ما بشكل جيد .

خفف السائق من سرعة السيارة وهي تمر بشاحنات ضخمة محملة بالدبابات . وعندما اجتزناها ضاعف السرعة من جديد مطبطباً هذه المرة على المقود بايقاع عسكري لا شك أنه كان ينتظر مني تهنئته لاتقانه اياه ، فقد كان يحاول في مرآته اقتناص نظرتي الشاردة . ومن الخلف تشابكت أحاديث المسافرين عن الحرب والجبهة وأخبار الأبناء الجنود . وتشعبت الأحاديث لتتطرق لحروب أخرى . وسرعان ما استقطب اهتمام الجميع رجل كهل بقي صوته المشروخ الذي تتخلله نحنحاته وهو يسلك حلقه يتتابع محدثاً إياهم عن حياته العسكرية المديدة التي بدأها جندياً متطوعاً في فوج (موسى الكاظم) وختمها في حرب فلسطين عندما أصيب على مشارف تل أبيب التي كانت قد أصبحت على مرمى قذائف المدفعية العراقية . وعبثاً بحثت في المرآة الجانبية عن وجهه ، اذ أنني لم أر سوى وجوه بملامح غامضة كانت تستدق كلما غاصت في عمق المرآة . لكن صوته الصادر من حنجرة لا شك أن التبوغ القوية قد اتلفتها بقي يحاصر سمعي ، فتذكرت الصوت الآخر ، صوت أبي المتسلط وهو يدعوني الى حجرته التي كان يحظر على غيره اجتياز عتبتها بغيابه ـ ذلك الغياب الدائم الذي لم يكن ينقطع الا على فترات متباعدة في الأعياد والاجازات عندما كان يحضر إلى القرية ببدلته العسكرية التي تعلو كمها الأيمن ثلاثة خيوط سود ، والتي كانت مصدر مباهاة أمي ، فيخيم على البيت صمت متوتر نتبادل خلاله الحديث همساً وأعيننا تتطلع برهبة نحو باب الحجرة المغلق ـ وبخطى برمة كنت أدلف إلى تلك الحجرة المضاءة بفانوس لا يغادر موضعه على منضدة خشبية واطئة على يسار الداخل . ولساعات طوال كنت أمكث معه وسط بنادقه العديدة التي حصل عليها بطرق شتى : فالبندقية التي (يعاشرها) ـ حسب قوله ـ لفترة لا يستطيع التخلي عنها بسهولة ، ولا بد له من الحصول

عليها أو على صنف مماثل لها . كنت أظل قابعاً في مواجهته على الحصيرة وعيناي تتابعان أصابعه الغليظة الملطخة بدهن (الجمام) وهو منهمك بتفسيخ وتزييت واعادة تركيب تلك البنادق ، بينما ذهني منصرف لصبية القرية الذين لا تكف مقاليعهم عن اقتناص العصافير .

ـ (تأكد بأن هذه البنادق هي الارث الوحيد الذي سأخلفه لك بعد موتي . ودونها لا تساوي حياتك فلساً أحمر !) .

ذلك ما كان يردده أبي على سمعي وهو يلقنني مفرداته العسكرية البحتة المتعلقة بالبنادق وملحقاتها من (قوانات) الرصاص الجلدية وأصناف الطلقات (الكرخانة) و (الشدادة) التي كان يحرص على تعليمي كيفية تعبئتها : فيريني (البوشة) التي تتوسط (الكبسونة) ومن كيس (الشمتة) ـ الذي كان لا ينسى بأن ينوه بضرورة وضعه في مكان جاف وبعيد عن النار ـ كان يملأها بالكمية اللازمة من البارود ومن ثم يردفها بالرصاصة . ومثلما كان المعلم يصدع رأسي في مدرسة المدينة بأسماء حروف الهجاء كان أبي يلقنني أبجديته الخاصة التي تبدأ بأجزاء البندقية من (لولة) و (كنداغ) و (عين) و (فرشة) و (طرنبة) و (دبج) و (عقرب) وتنتهي بأسماء بنادقه البدائية ـ مصدر عذاب العائلة فيما بعد ومثار سخرية الأصدقاء ـ من (أم وريدة) و (أم جنيح) و (أم قوطي) و (بشتاوة) تلك البندقية القصيرة بأصنافها الثلاثة (الفرد) ذات الانبوبة الواحدة و (المطبجة) ذات الانبوبتين المتجاورتين و (المركوبة) ذات الانبوبتين اللتين تعلو احداهما الأخرى ، و (المطموسة) و (الدلعة) و (الشريفية) و (المسلوبة) و (الماطلية) و (الطكاكة) و (البرنو) و (الكسرية) . كان يعبىء ذهني بتلك الاسماء ذات الإيقاع الخشن والمسكونة جميعها بالموت دون أن يكتشف أن ضجري منها ـ بل ومنه أيضاً ـ ينمو باطراد . وازدادت القضية تعقيداً عندما احيل على التقاعد ، فقد حول البيت إلى ثكنة حقيقية لا ينقصها سوى مدفع ، وحول وجبات الطعام إلى ساحة عرضات لم نكن نستغرب لو أعجبه أن يدعونا اليها على صوت بوق . ولا أزال اتذكر ذلك اليوم الذي خطرت في ذهنه فكرة البحث عن صورة يتيمة كانت له وهو فيها برتبة عريف . وأضناني البحث طوال نهار كامل كان على خلاله ملاحقته في تنقله المحموم عبر حجرات المنزل نابشاً في صور وأكياس وزنابيل أمي العامرة بكل ما يخطر في البال بدءاً بفئران تتقافز في البداية هاربة ، ومروراً بزجاجات فارغة وأخرى تحتوي على مواد غامضة لا يعلم سرها إلا الله . بالاضافة لأكياس حناء وثمار مجففة ولحاء جوز وحلي فضية وجلود ثعابين ، انتهاء بحبوب (اسبيرين) كانت تأتي بها أمي على دفعات من مستشفى المدينة كدواء وحيد لكل ما وجدت على سطح الأرض من أمراض .

وبعد بحث طويل لم نقع سوى على صورة شمسية ظهر فيها أبي بالكوفية والعقال وقد أسند كفيه على ركبتيه وعيناه الصغيرتان المتلامعتان حول منبت أنفه الكبير مثبتتان في عيني الناظر مباشرة بشيء من التحدي والعناد كأنه يتوعد المصور المجهول أو من لا تعجبه الصورة بالويل والثبور . وكاد اليأس يتطرق الى قلبينا بعدما لم تبق أمامنا سوى صورة واحدة . وكنا قد تحولنا إلى كائنين خرافيين يغطينا الغبار ونسيج العنكبوت وتفوح من ثيابنا رائحة زبل الفئران . وكان أبي قد أوشك على أن يجدف ساخطاً عندما تهللت أساريره وهو يستل الصورة المنشودة التي بدا فيها بهيئة جانبية ، عيناه شرستان لحد اللعنة وقد صالب ذراعه اليمنى التي تعلو كمها ثلاثة خيوط سود باتجاه العدسة مباشرة حتى بدت أضخم من حجمها الحقيقي ، مثلما تظهر أذرع بعض الممثلين في أفلام الكاوبوي . بدا من الواضح أن كل همه كان منصرفاً لتلك الخيوط العتيدة التي لو لم يظهرها المصور لكان أبي قد كافأه بعين مزدانة بهالة بنفسجية لم تكن تبهجه بالتأكيد .

وانتهت متاعب أبي لتبدأ هذه المرأة متاعبي أنا ، اذ كان عليّ التوجه إلى المدينة لأجل تكبير الصورة . ولحظة أردفني على ظهر الدابة القميئة لم ينسَ أن يكرّر على سمعي للمرة الألف بأن لا أدع المصور يستغفلني فيبتر الصورة عند الخيوط . ويوم استلم الصورة اعتصم بحجرته مطبقاً الباب وراءه . واجتمع شمل العائلة بأكملها بدءاً بأمي وانتهاءً باختي الصغيرة . ولوقت طويل بقينا نتطلع بعيون ساكتة نحو الباب الذي تردد من خلفه صرير منشار يعمل في الخشب ، أعقبه أزيز حجر ماس يقطع الزجاج ، ومن ثم ضربات مطرقة وصوت تهشم شيء ما غادر بعدها أبي الحجرة بسبابة مفردة يسيل منها الدم . وعندما شهقت أمي مستفظعة نهرها بقسوة طالباً منها إعداد (عطابة) سارع بوضعها على اصبعه والنار لا تزال مشتعلة فيها . ومن جوف الحجرة أطلت صورة العريف أبي المعلقة في مواجهة الباب تماماً وزجاجتها تفيض بوهج النهار .

(٢)

أوقف السائق السيارة تاركاً محركها يهدر بصوت مكتوم . وعلى المقود شبك ذراعيه مسنداً عليهما ذقنه وهو يتأمل ارتال شاحنات عسكرية شدت اليها مدافع ومطابخ ميدان قطعت السير وثمة جنود بخوذ ورشاشات يحومون حولها . ومن ورائنا ارتفع نفير السيارات التي تزاحمت لمسافة طويلة ، فأطل سائقنا برأسه من النافذة ملتفتاً إلى الخلف . وارتفع صراخه وهو يبادل السواق الشتائم وأصابع يده اليمنى المستقرة على المقود تتراقص بعصبية مستجيبة للسخط المتفجر في الرأس الثائر في الخارج . وعاد السائق بوجه متورد إلى الداخل وهو لا يزال يتابع شتائمه المبتكرة . وبعدما قذف ببصقة مرقت من النافذة على شكل قوس عاد يطل برأسه الى الخارج متطلعاً هذه المرة إلى أمام . وشحبت قبضته التي شد بها على المقود وهو ينادي :

ـ أبا خليل ... أبا خليل ...

واقترب جندي من مقدمة السيارة ووجهه الفتيّ الذي كان يحاول أن يضفي عليه صرامة مبكرة غاطس في خوذة فولاذية . ومن وراء الزجاج بقيت شفتاه تنفرجان وتنطبقان للحظات وهو يكلم السائق بشيء ما مشفوع بايماءات من رشاشته القصيرة نحو جانب الطريق . وبعدما ألقى السائق بنظرة خاطفة إلى الوراء حرك سيارته ببطء وانحرف بها لتنحدر يميناً . واقتحمت سحب الغبار جوف السيارة التي شرعت تسير على الأرض المترية . وعلى اليسار ، فوق الطريق الاسفلتي المرتفع ، اجتزنا شاحنات (ايفا)

العسكرية الواقفة والجنود يحاولون زحزحة اثنتين منها نحو جانب الطريق لا شك أنهما كانتا سبب المشكلة .

عادت السيارة تعتلي الطريق الاسفلتي لتنطلق إلى الامام برشاقة . وعلى يساري عاد المسافر لإغفاءته تاركاً مسبحته تنزلق ساقطة ، ورأسه المركون على المسند الخلفي ما يكاد يميل ليستقر على كتفي حتى ينتفض مذعوراً ويغمغم معتذراً قبل أن يواصل اغفاءته القلقة التي بلّدت حواسي وكادت تجعلني أنام بدوري ، لولا أنني انتبهت للسائق يرمقني في مرآته اللعينة . على اليمين امتدّت مخاضة مياه راكدة واكبت الطريق كان سطحها المغطى في بعض المواضع بنباتات مائية رخوة تتوهج تحت أشعة الشمس التي مالت غرباً .

اخرجت البرقية من جيبي . وبعد مناورة نجحت فيها بابعادها عن عيني السائق اللتين كانتا تترصداني في المرآة قرأتها للمرة الثانية : في ذلك اليوم كنت في زيارة للقرية في احد الأعياد . ومن أصدقائي سمعتُ بحكاية ذلك الجندي الذي عاد من جبهة الأردن بعد أشهر من هزيمة حزيران جالباً معه غلاف قذيفة مدفع أو شيئاً من هذا القبيل . وتناهى خبر ذلك الغلاف الفارغ لسمع أبي فلم يترك الجندي المسكين يهنأ باجازته القصيرة إلا بعدما حصل عليه . ووسط قهقهات أصدقائي وهم يخبرونني بتلك الحكاية علّق أحدهم بخبث :

- (يبدو أن أباك مل تجميع البنادق فاستعاض عنها بالأغلفة الفارغة !) .

لم أعد أحتمل المزيد . وفي طريقي نحو البيت فكرت بسر اعجاب أبي بذلك الغلاف ، فالذي أعرفه أنه كان قد ترك منذ سنوات طفولتي البعيدة تعبئة الطلقات (الشدادة) بعدما شاعت الطلقات (الكرخانة) . كما وكنت أعلم جيداً أنه لم يعد يحتفظ في حجرته بالبارود فأكياس (الشمتةِ) أضاعها كرّ السنين . فما سرّ هذه النزوة الجديدة ؟ وهكذا وجدت في نفسي الجرأة الكافية لأصارحه بحقيقة مشاعري .

لوقت طويل لم ينطق أبي ، انما بقي يحدجني بنظرته القديمة . غير أن الأمور كانت قد اختلفت وكنت قد أوشكت على أن أنسلخ من جلدي الفلاحي ، وهناك وظيفة بانتظاري حالما أنهي دراستي بعد أشهر ، فبقيت أبادله النظر بثبات وأنا أهادن احقادي القديمة التي كانت تنمو في أعماقي كلما وجدت نفسي أسير في حجرته العابقة برائحة البارود والدخان . لم يثر أبي بل خرج عن صمته الدائم ليكلّمني بفم بدا كأنه لم ينطق منذ دهر :

- (لن أغفر لك ذلك !) .

فأجبته وأنا أحاول أن أهدىء من ثائرتي :

- (ذلك لأجل صالحك يا أبي ... ألا يهمك كلام الآخرين ؟)

- (تعني أنني قد خرفت يا بني ؟) .

فتهدج صوتي وقد أوشكت على البكاء شاعراً باستحالة التفاهم معه :

- (إنس حياتك العسكرية الماضية يا ابتاه ... وكف عن تزييت وتنظيف تلك البنادق التي تثير سخرية الجيران !) .

لوقت طويل خلته دهراً بقي يحدق بي بعينيه الكهلتين اللتين كانتا قد غارتا في محجريهما واعتلتهما ضبابة الشيخوخة . وبعدما مسح أصابعه العظمية الطويلة بخرقة منظفاً إيّاها من الزيت الذي كان يشحّم به بنادقه أولاني ظهره المحدودب بعض الشيء ورقبته المعروقة الشبيهة بساق عباد الشمس . واتجه نحو حجرته . وعندما أصبح ازاء الباب تمتم مردداً الكلام نفسه الذي صدع به رأسي في طفولتي :

- (تأكد بأن هذه البنادق هي الإرث الوحيد الذي سأخلفه لك بعد موتي ودونها لا تساوي حياتك فلساً أحمر !) .

وقبل أن يطبق الباب وراءه أضاف :

- (انه إرثي الوحيد الذي لو فرّطت به بعدي لحمّلتك خطيئتي وأنا ميت !) .

ذلك كان آخر ما قاله أبي . وذلك كان آخر لقاء لي به . لم أعد أتحمل تسلطه الدائم وسخريات أصدقائي وهم ينهون من العريف الكهل الذي يفترش عتبة بيته من حين لآخر وينهمك بتنظيف وتزييت بنادقه العصمليَّة . كان قد آن لي أن أثأر لطفولتي المحبطة ولمسرّاتي الصغيرة التي ألغتها عتمة تلك الحجرة ، فقررت ترك القرية إلى الأبد .

(٣)

عندما استيقظت من اغفاءتي ، كانت السيارة تقف ازاء نقطة التفتيش القائمة عند مدخل المدينة التي تقع قريتي على مشارفها الشرقية . وكان الليل قد خيم . ولحظة أوقد جاري سيكارته ارتسمت على الزجاج هياكلنا الداكنة التي سرعان ما توحّدت بالعتمة الشفيفة بعض الشيء . وبقيت جمرة سيكارته تتألق من حين لآخر .

- عذراً يا جماعة.. هوّياتكم رجاء .. فكما تعلمون ، إنها الحرب .

قالها شرطي وهو يدخل رأسه الملفوف بكوفية حمراء مرقطة عبر نافذة السيارة ، وثمة بطارية في يده تنبض بضوء خاطف .

حقاً إنها الحرب ، فلأول مرة أرى المدينة غارقة في الظلام ، تابعت السيارة سيرها ، وعلى جانبي الشارع الوحيد تراصفت شاحنات محملة بالدبابات وثمة نار موقدة تزاحم حولها الجنود . وبرز البناء الملحق بمحطة البنزين وقد أصابته الطائرات المعادية فتهدمت واجهته . وسقط ضوء المصباحين المطليين على الركام المتشابك في الداخل ، فظهر باب ارتكز على قائمته بشكل مائل . وعلى الرصيف كانت ثمة سدرة غدت مجرّد هيكل متفحّم ، ومن قاع الوادي الكبير الذي يعلوه الجسر الاسمنتي الهزيل تصاعد خرير سيل مبكر. وفي الجانب الآخر حيث تتتابع البيوت الطينية ما كدت أهبط من السيارة حتى انسلخ شخص من عتمة المقهى الصغير وتقدم متفحصاً المسافرين عن كثب . كان عمي وقد اعتمر كوفية سوداء . وعندما لمحني هاجمني صادماً بالاكتاف والركب من اعترض سبيله . وكتم علي انفاسي بعناقه الحميم مبللاً وجنتي بقبلاته الرنانة . ونهنه ببكاء مصطنع سرعان ما قطعه بتمخّط رهيب وانطلق يثرثر بجملة أشياء لم أفقه منها سوى تأكيده على مفتاح يخصّني لا شك أنه أثار فضوله ، فأنا أعلم جيداً أنه لو كانت هناك مباراة للفضوليين لأصبح عمي (المحبّ) كبيرهم دون منازع .

ركبنا الدابتين اللتين كانتا مشدودتين الى عمود الكهرباء المطفأ . وأصر عمي على أن يحمل حقيبتي معه . وعندما طلبت منه أن يقص لي ما حدث بالتفصيل لجأ لطريقته العوجاء في الكلام فاعتذر لمرة ، أردفها بثانية وثالثة حتى كاد يفقدني صوابي . واعتذر للمرة الرابعة لتأخره بارسال البرقية بسبب انشغاله باقامة مجلس الفاتحة الذي انتهى عصر اليوم . وعاد لبكائه المصطنع وهو يقول :

ـ ... فقد كان أخي .. وأنا حنين بطبعي .. وكان لا بد لي من أن أقوم نحوه بالواجب ...

وأردف بلهجة مساومة :

ـ ... أتدري ؟ خمسون ديناراً صرفتها على القهوة والشاي والسكائر ونحر خروف .. والبرقية نفسها كلفتني ديناراً أزرق ... ومنذ ارسالي لها وأنا انتظرك في ذلك المقهى أغمض عيناً وأفتح أخرى والسيارات تتالى ولا أثر لك و . .

وعاد لذلك المفتاح اللعين . واخترقنا أزقّة المدينة الضيقة وشرعنا نشق سبيلنا وسط الطرق الممتدة عبر غابات النخيل . لا شيء يعكر هدوء الليل العامر بصرير الجنادب سوى صياح عمي المتواصل ونقر حوافر الدابّتين على الأرض المتربة . ولحظة مررنا بمقبرة (عبد الله الصالح) الممتّدة على يميننا في الجانب الآخر للنهر شكم دابته ووقف بها ازاء القنطرة ليشير لموضع ما قرب المغسل ويقول :

ـ دفنّاه هناك .

وشرع يتمتم بالفاتحة . ولم أجد في نفسي القدرة على مجاراته ، فقد خيّل لي أنه لم يمت ، وانني سأراه في حجرته وسط بنادقه . وما كدنا نلكز دابتينا ونواصل السير حتى حاذاني عمي ليخاطبني كمن تذكر أمراً ما كان قد غاب عن ذهنه :

ـ لم يمت إلا بعد بضع ساعات من إصابته ، قضاها على سرير المستشفى دون أن يكفّ عن التوجع طالباً مني أن أردفه على ظهر الدابة وأعود به الى القرية ليموت في حجرته .

يبدو ان الله ألهمه فتذكر السؤال الذي طرحته عليه في المدينة قبل أكثر من نصف ساعة . ولكن كيف أصيب ؟ ولماذا ؟ وكيف مات ؟ فتلك هي الأسئلة المستحيلة التي لن يجيبني عمي عليها حتى لو هشمت رأسي على أقرب جذع نخلة .

في البيت شعرت لأول مرة بأنني حقاً غدوت كبير العائلة . فقد احاطني الجميع بالرعاية والاهتمام ، ما أكاد أطلب شيئاً حتى تمتد الأذرع لتناولني إيّاه .ورغم ذلك بقيت أحدج باب الحجرة المغلق بنظرة متوجسة كأنني أتوقع أن أسمع صوته وهو يدعوني اليه ، أو ينفتح الباب بغتة ليرميني بواحدة من نظراته المخيفة تلك . كان البيت رغم غيابه الأبدي يرزح تحت وطأة تسلّطه ، فأينما مددت بصري واجهني شيء ما من صنع يديه ، بدءاً بباب البيت الخارجي وانتهاء بالموقد الذي توسط التوري جمره . وحتى هسيس الرياح وهي تمر بالنخلات القائمة في الفسحة الملحقة بالبيت ، ذكرني بأنه هو الذي زرع تلك النخلات التي اعتاد أن يحثّني على الاعتناء بها مردداً على سمعي حديث الرسول : (ارحموا عماتكم النخل) .

وأخيراً أشبعت أمي فضولي عن كيفية موت أبي فأخبرتني وسط نشيجها وتمخّطها المتتابع ومسح أنفها بطرف الفوطة بأنه أصيب بشظية من احدى القنابل التي ألقتها الطائرات على البناء الملحق بمحطة البنزين وكان قد اعتاد في الفترة الأخيرة ركوب دابته والذهاب إلى المدينة وعبور الجسر نحو الجانب الآخر منها حيث الدبابات والشاحنات العسكرية التي تسحب المدافع تمر من هناك في طريقها إلى الجبهة . ولم تكد أمي تصمت حتى عقّب عمي الذي كان يتابعها بفم مفغور :

ـ وقد ترك لك مفتاح الحجرة ... وكان في لحظات احتضاره يهذي عن الدولاب وعن شيء ما يخصّك في طابقه العلوي ... أما ما هو ؟ فالعلم عند الله ... اسمع ... قد تكون وصيته في الدولاب !

ولولا دقة الوضع لانفجرت مقهقهاً : أية وصية يتركها أبي وملكيته لا تتجاوز هذا المنزل اللبني بأثاثه المتواضع الذي عمله بنفسه بالاضافة لنخلاته المعدودة وبقرة أو اثنتين ، وتلك الدابة التي حملتني من المدينة ؟ انها ملكية لا تثير الطمع ، وهي لا تحتاج لوصية لتوزع بين الورثة ، فأنا من الزاهدين فيها ، وما هي إلّا أيام وأعود لأواصل حياتي في تلك المدينة الكبيرة . وكان عمي قد أيقن متأخراً من أنه لن يشبع فضوله الليلة فغادرنا وهو ينفخ بغيظ .

(٤)

نمت مبكراً لاستيقظ مع أذان الفجر يملأني احساس دافىء بالألفة مع كل ما يحيط بي . وكنت قد استبدلت ملابسي بثوب وعترة فعدت كما كنت قروياً تنكّر لجلده لسنوات معدودة أستللت المفتاح من تحت الوسادة واحتذيت خفّيّ الجلديين . وعلى ضوء الغبش الرمادي الذي لم يستطع أن يجسّد معالم البيت بوضوح ، اتخذت طريقي نحو الحجرة ، تاركاً الباب ورائي مفتوحاً ليتسنى لي تلمّس موطىء قدمي . لكن ركبتي اصطدمت بالمنضدة الخشبية الواطئة التي كانت قد غابت عن ذهني فتحسّست سطحها كالأعمى . وكدت أقلب الفانوس الذي لم يغادر موضعه القديم . ووقعت على علبة ثقاب فأشعلت الفانوس وانداح ضوء برتقالي كئيب أظهر أبي على الحائط المقابل بخيوط كمّه الثلاثة وهو يحدجني بنظرته الغابرة التي زادت من وقعها عشرات البنادق المتراصفة على يمينه وشماله . بقينا نتبادل النظر للحظات اختصرنا خلالها سنوات المكابرة التي فرّقتنا عن بعضنا . غير أن ذلك كان قد أصبح في حكم الماضي ، فجلت ببصري عبر محتويات الحجرة القليلة المتوزّعة بين حصيرة فرشت بها الأرض ودولاب يقوم على يميني يواجهه كرسي جريدي ركنت فوقه سجادة الصلاة . كانت الحجرة على وضعها السابق لم يتبدل فيها أي شيء سوى أن أبي كان قد غاب الى الأبد !

اتجهت نحو الدولاب ومددت يدي متلمّساً محتويات طابقه العلوي الذي حجب الباب عنه ضوء الفانوس . ومرة أخرى اصطدمت اصابعي بشيء أشبه ما يكون بعلبة هوت ساقطة وتدحرجت نحو احدى الزوايا . واستقرّت كفّي على كتلة معدنية ثقيلة ادهشني وجودها هناك ، لتنتقل لكيس لا شك أنه يحتوي على تراب أو رمل أو أي شيء آخر أثار احدى نزوات أبي . انتقلت للطابق السفلي الذي يحوي على أدوات النجارة المعهودة وأنا أفكر بهراء فكرة عمّي عن الوصية التي تركها أبي هناك .

عدت أواجه حائط البنادق ، الذي يبدأ من الجانب الأيسر بواحدة من صنف (المكنزي) كانت تعود لجد أبي ، وينتهي بالجانب الأيمن قرب الدولاب ببندقية (برنو) كانت تعود لأبي نفسه ... وتشابكت في ذهني حكايات أبي التي لقّنني إيّاها عبر سنوات طفولتي ونحن منهمكان بتزييت البنادق بدءاً بحكاية جدّي الذي سيق مع حملة (ابن رشيد) . وكان من قلة الناجين من جنود (ابن سعود) ومن رمال وعواصف صحراء القصيم . فقد عاد بذراع معطوبة وبندقية (مكنزي) كان لا يزال محتفظاً بها عندما اعتصم بعد عشر سنوات مع كثيرين في (دغل الخندق) يوم اعلنت الدولة العثمانية (السفربر) . ولم يتخل عنها حتى عندما سلم نفسه للجندرمة بعدما أصدر الوزير التركي (انور باشا) الأمر باعدام (الأفرار) .

ومررت ببضع بنادق لأقف عند واحدة من صنف (الموزر) ذكّرتني بتلك الرحلة الأسطورية التي كان أبي يحدثني عنها بأدق تفاصيلها ـ كأنه شارك فيها ! ـ والتي غامر فيها جده وأبوه فاتجها بقافلة صغيرة تتكون من أربعة بغال ركبا اثنين منها وشدّا تابوتين مملوءين بالبنادق والخراطيش على ظهر الآخرين لتهريبها لـ (ثوار العشرين) . وعندما أوشكا الوصول لبلدة (الكفل) حيث محط رحالهما فوجئا بفصيل عسكري يطوقهما يتكون من خليط عجيب من جنود انكليز بوجوه متورّدة وعيون زرق ، وجنود من السيخ والكركه تكاد جلودهم المدبوغة تبدو خضراء اللـون ، وعيونهم الغامقة تتلامع تحت شعرهم الأسود ذي اللمعان المزرق مثل عيون الشياطين . وكانوا يرتدون بناطيل قصيرة تكشف بشكل فاضح سيقانهم النحيلة الملساء . وانهمكوا بقرع التابوتين بأعقاب بنادقهم وهم يرطنون بينهم بكلام سريع غير مفهوم . وكان يقودهم رجل مديد القامة كانوا يخاطبونه بـ (الكابتن) بقي يحدج المهربين بنظرة متشككة . وفجأة رطن بكلامه العجيب الذي فسّره احد الجنود الهنود بعربية سقيمة متسائلاً عن وجهتهما . فأجابه جد أبي بأنه ذاهب بالتابوتين الى النجف . فتساءل الكابتن عن سر مصادفة موت اثنين معاً . فأجابه بأن ذلك يعود لأنه (مكاري) يعمل بنقل الجنائز في منطقة تُعدّ قراها بالعشرات . لكن الكابتن لم يتخل عن شكوكه فأومأ بسبابته المصفرة من أثر الدخان نحو الموزر التي كان جد أبي يتنكبها ، ورطن بكلامه السريع الذي فسّره الجندي بقوله :

ـ (ان كنت مجرد مكاري لا تنقل سوى الجنائز فما حاجتك الى هذه البندقية ؟) .

ـ (الدنيا ليست مأمونة هذه الأيام يا جناب البيك ، ومن الضروري اتخاذ جانب الحيطة والحذر !) .

لكن العينين الزرقاوين ظلتا تحدجانه بتلك النظرة المتشككة عندها أردف دون أن تهتز شعرة منه :

ـ (أنا على استعداد لرفع غطاء أحد التابوتين رغم أن ذلك لا يجوز ، فللموتى حرمة !) .

قالها على أمل أن يدعوه وشأنه . لكن الكابتن أومأ هذه المرة نحو التابوت صارخاً بكلامه الغامض الذي فسره الجندي بقوله انه يأمره بفتح التابوت . فأخرج جدّ أبي مطواة من جيبه وتقدم من التابوت وهو يحكم اللثام حول فمه وانفه . وعندما رفع أحد الألواح قليلا ليتسنى لهم رؤية القطن الذي لف به البنادق استدار نحوهم بغتة وقال كأنه تذكر أمراً كان قد غاب عن ذهنه :

ـ ((عذركم يا جماعة ... ارجو أن تبتعدوا قليلاً وتلثموا أنوفكم وأفواهكم فقد تفشىٰ الطاعون في منطقتنا وأخشى أن يكون احد هذين الميتين أو كلاهما قد مات بسببه فأحمل خطيئتكم في عنقي !) .

ما ان نقل الجندي ذلك الكلام بلغتهم حتى تبادلوا نظرات فزعة وقد دب فيهم الذعر وتراجعوا الى الوراء واكثر من واحد يومىء لهما بالابتعاد بحملهما الرهيب . فوصلا لبغيتهما ومعركة (الرارنجية) على أشدها . لكنهما عند عودتهما القى الانكليز القبض عليهما وسلبوهما ثمن البنادق وسجنوهما في سراي بلدة دعفك . ولولا ان (صلال الفاضل) الملقب بـ (الموح) ثار في تلك الفترة واستولى على السراي لضاعا الى الأبد .

كالمأخوذ عدت استعرض البنادق وصوت أبي يتردد في سمعي وهو يحدثني عنها واحدة اثر الأخرى : فهذه الـ (لي انفليد) كانت مع جدّي يوم دخل ضمن قوات (بكر صدقي) بغداد . وهذه (الشريفية) ذات الخشب القليل هي أول بندقية امتلكها أبي ، وقد رافقته خلال ذينك الشهرين اللذين استغرقتهما (ثورة مايس) وكان الوصي قد هرب ليعود بعد سقوط (الفلوجة) بيد الانكليز ويدخل بغداد بعد وصول قوات (كلارك) الى (خان النقطة) حيث الحرب العراقية ـ البريطانية التي استمرت ثلاثين يوماً كانت قد انتهت . وبقيت تلك البندقية معه عندما شارك بعد سنوات في حرب فلسطين .

وهذه الـ (برنو) كانت آخر بندقية حاز أبي على صنف مماثل لها اذ انه أُحيل على التقاعد بعد أشهر من سيطرة وحدات لواء المشاة العشرين على بغداد . كان هو ضمن سرية متكونة من أربعين جندياً هاجمت (قصر الرحاب): فصوّبوا رشاشتهم الـ (برن) الوحيدة باتجاه الباب النظامي لحديقة القصر . ومزقت صمت ذلك الفجر التموزي رشقات اطلاقاتهم التي أصابت غرفة نوم الوصيّ . وبادلهم الحرس الملكي اطلاق النار فتعقدت الأمور . غير أن نجدات جاءتهم بضمنها مدفع عيار (١٠٦) ملم أطلقوا منه ثلاث قنابل (بازوكا) حسمت الموقف لصالحهم .

قبل أن أغادر الحجرة القيت بنظرة من فوق كتفي نحو حائط البنادق ، فواجهني أبي بعينيه الكهلتين الغائرتين في محجريهما وقد اعتلتهما ضبابة الشيخوخة . وعاد ذلك الشعور القديم بالاثم يملأني : فأمام هذا الإرث الذي تركه هؤلاء الرجال الثلاثة ـ أبي وجدي وأبوهُ ـ كانت مكابرتي في ذلك اليوم البعيد محض غباء .

(٥)

شرعت بتناول الافطار وانا اتطلع نحو النخلة الظاهرة من طاقة تطل على البستان وقد تخللتها الشمس بأشعتها . وأخبرت أمي التي بقيت ترمق باب الحجرة المفتوح بتهيب بهراء فكرة عمي عن الوصية . واردفت بصوت ممضوغ وقد حشوت فمي بنصف بيضة :

ـ كان للمرحوم ما يشغله طوال حياته عن التفكير بكتابة وصيّة ! .

قلتها على سبيل التفكه . لكن أمي حملت كلامي ذاك محمل الجد وعقبت وهي ترتشف من قدح شايها رشفات صاخبة قائلة بأن ذلك صحيح ، فقد عاد أبي لهوسه القديم فعقب كل زيارة كان يقوم بها الى المدينة كان يعود محملاً بمواد غريبة كالرصاص والكبريت والفحم والقطن .. بل وسبخة الأرض !! ... وفي أيامه الأخيرة لم يعد يغادر حجرته لا شيء يدل على كونه حياً سوى دقات هاونه المتتابعة .

لحظتئذ توقفت يدي التي كانت في طريقها نحو فمي . ووسط دهشة أمي تركت طبق الافطار ودخلت الحجرة . حملت الفانوس لأتفحص عن كثب محتويات الطابق العلوي من الدولاب ، فاكتشفت أن تلك العلبة التي صدمتها أصابعي قبل قليل لم تكن سوى غلاف القذيفة الفارغ الذي حصل عليه عقب هزيمة حزيران . أما الكتلة المعدنية فقد كانت رصاصة صبّها بحجم فوهة ذلك الغلاف تماماً . وشممت أصابعي التي أدخلتها في جوف الكيس متلمساً بها تلك المادة الناعمة . وعلى الفور أدركت كل شيء . فتلك الرائحة الحادّة المرادفة لسنوات طفولتي لن يخطئها أنفي بالتأكيد . كان الكيس مملوءاً بكمية من البارود لا شك أن أبي صنعها بنفسه !

وقفت ازاء الصورة ورفعت الفانوس بموازاة رأسي كأنني أستنطق تينك العينين الغائرتين . في تلك اللحظة كتمت صرخة دهشة كادت تفلت من حلقي وتراجعت خطوتين إلى الوراء وقد خيل لي أن الحياة دبّت في وجه أبي : فعلى زجاجة الصورة ، حيث ضوء الفانوس يمس جانب وجهي مبرزاً الجبين تاركاً المحجرين غارقين في الظلام ، كنت أشبهه بالضبط ، سوى انني أكثر شباباً ! ... للحظات تنقّلت ببصري بين وجه أبي والبنادق والدولاب . وبعدما بادلته نظرة متواطئة سارعت باغلاق باب الحجرة وشرعت بالعمل .

عبد الخالق الركابي

بغداد

دار الآداب تقدم

حنا مينة
حكاية بحّار

لن أتحدّث عن هذه الرواية التي تجاوز فيها حنا مينه كل انتاجه السابق ، ولن أتكلّم عن عمق النزعة الانسانية التي تسري في جميع أوصالها ، ولن أشير إلى التزام المؤلّف بالموقف القومي العربيّ الذي يتجلّى في نضال أبطاله ضد الاستبداد التركي والاستعمار الفرنسي ، على انتمائهم إلى طبقة العمّال البحريين... ولن أنوّه باللغة الرشيقة والصور العجيبة واللفتات الرمزية الموحية التي يُحفَل بها هذا الأثر الفنيّ الفريد.

سيتناول الباحثون والنقاد تقييم هذه الجوانب حين يعرضون لدراسة « حكاية بحّار ».

واعتقد كذلك انه لن يكون أمامهم مفرّ من ان يعقدوا المقارنات بين الروائيين الذين كان البحر بطلهم الأول في بعض رواياتهم ، وبين حنا مينه. سيقارنون حتماً بين « حكاية بحّار » لكاتبنا العربي ، وبين « الشيخ والبحر » لهمنغواي و « حكاية غريق » لغابرييل غارسيا ماركيز.

وهنا أتذكّر فوراً ان هذين الروائيين نالا جائزة نوبل ، فأتساءل بلا تردّد: أتظلّ الاعتبارات التي لا تمتّ إلى الفنّ الحقيقي بصلة حائلة دون أن ينال هذه الجائزة روائيون عرب من مثل حنا مينه؟

سهيل ادريس